الأهرام

المصدر : الحياه
التاريخ : ٢٢ يولية ١٩٩٩

العدوان على لبنان ماض قريب بعيد

موفق نيربية *

■ في ليلة الرابع والعشرين من حزيران (يونيو) الماضي قامت اسرائيل بضرب محطتين كهربائيتين اساسيتين واربعة جسور في لبنان. وفي ظروفها الداخلية الانتقالية استغرب الكثيرون ما حدث. ونحن اعتدنا ان نفاجأ كثيراً بما تفعله اسرائيل، ولكننا لا نستغرب شيئاً. وفشلنا المتكرر في استنتاج حقيقة ما يحدث لم - ولن - يجعلنا نقلع عن عادة محاولة الفهم.

في ما يلي سوف نعود، نكاية بالفهم ذاته، الى الطريقة القديمة في تحليل الوضع، فننظر قليلاً الى الظروف الدولية والاقليمية والمحلية - المحليتين - التي جرى خلالها ما جرى:

في الوضع الدولي، انهى حلف شمال الاطلسي حملته المظفرة على صربيا، وانهى حرب كوسوفو. ودمّرت هذه العملية جزءاً مهماً من البنية التحتية ليوغوسلافيا الحالية، كانت المحطات الكهربائية والجسور وتجهيزات الاعلام اهدافاً رئيسية فيها. وفي اللغط الذي تردد عن احتمال اعتماد هذه الطريقة في المستقبل مع اي دولة تزعج اجراءات التنظيم الجديد للعالم، لم تات أمثلتنا العربية وحدها كالعادة، بل سمعنا همساً ومخاوف اسرائيلية ايضاً، وايضاً استغربنا ذلك فهل يحاول الاسرائيليون بضربتهم واهدافها تاكيد اصطفافهم في الخندق التقليدي ام انهم يبرهنون للحلف الحاكم قدرتهم على استنساخ التكتيك بسرعة فائقة. ام يقومون بما يرونه مناسباً في اللحظة المناسبة الانتقالية ما بين قرقعة الصواريخ وجلبة السياسة التالية للحرب، لحظة الهدوء الذي لا يريد احد ان يسمع فيها شيئاً؟!

وفي الظرف الدولي ضجيج كشمير ايضاً. هناك يرى البعض في الضرب الهندي شرعية لا يراها البعض الآخر. الضجيج مفيد، وقد كان ضبابياً في اوائل السبعينات على تعبير المرحوم السادات. والتسلل الباكستاني المشتبه به كاساس لشرعية العنف المثار وشرعية العلاقة العقارية مثال مفيد. والفائدة عائدة هنا بالطبع الى اسرائيل، النووية بدورها.

اقليمياً، لم يشكل باراك حكومته حتى تاريخ الضربة، ونتانياهو كان يصرف الاعمال. هذا يريد ربما توديع الناس بشيء مثير ومهم كضرب الطاقة اللبنانية مثلاً. وباراك لا يمانع بقصف تمهيدي يسبق انقضاضه السلمي.

وبما ان سورية تعبر بأوضح الاشكال الممكنة عن الرغبة والامل بانبعاث العملية السلمية، فهذا انسب الاوقات - من المنظور والمصلحة الاسرائيليين - لتحويل اتجاه الورقة اللبنانية، او جعلها نافلة على الاقل، حيادية على الطاولة.

كما يتعرض مجلس التعاون الخليجي الى هزّة بسيطة لكنها الاولى ربما، من خلال تطور علاقة ايران خاتمي بالسعودية، وعتب الامارات الخاص بالجزر الثلاث. وهناك ايضاً تناقض اميركي - اسرائيلي في العواطف تجاه الخليج.

ولعل في تصعيد المنظمات اليهودية العالمية المغالي لمسالة محاكمة اليهود الثلاثة عشر في ايران تحريضاً للجناح الآخر المحافظ فيها، اضافة الى كونه حرباً عليها كلها. ضرب لبنان لا يكون بذلك غضبة ليهود الارض حتى محاكمة ايران وحسب، بل فعلة اسرائيلية تستفيد من حنان العالم الذي ما انفكّ يتدفق.

ولم يستطع الفلسطينيون تامين انعقاد مؤتمر لدول «الطوق» ويرى الاسرائيليون ان هناك تسابقاً عربياً في المسارات لا باس بالاستفادة منه. يكاد القلق الفلسطيني من احتمالات التهميش في المرحلة القادمة يشل مرونة قياداتهم، ويضيّق من مجال الرؤية والفعل الى حدود دنيا لم يعرفوها من قبل.

في ظروف كهذه جاءت الضربة الاسرائيلية، ويقال انها فشلت تماماً في تحقيق اهدافها. فلم تفلح في فكّ وحدة المسارين، ولم تُضعف من الالتفاف الشعبي والرسمي حول المقاومة، ولا من الاصرار على ضرورة التزام اسرائيل الانسحاب من جميع الاراضي اللبنانية من دون قيد او شرط. ومن جهة اخرى استطاعت الدولة اللبنانية مدعومة بحلفائها وصداقاتها ان تغطي الخسائر وتتلافى آثارها المحتملة لاحقاً، سواء على السياحة او على متانة الليرة والاقتصاد.

فلماذا اذن يشعر البعض منا بالغصة والزيف وشيء من قهر قديم ولحية مستباحة؟!

تطورات الحدث تشرح - ربما - اسباب الحالة المشار اليها: كان الجميع متاكدين من معرفة الحكّام الجدد في اسرائيل بالعملية، ومن عدم معارضتهم على الاقل، وضاعت هذه الحقيقة بسرعة فائقة، بعد المرحلة الاولى و«فوضى» تصريحاتها. لكانما كان هنالك امتحان ينبغي النجاح فيه، امتحان من نوع الاختبارات المفاجئة التي تسبر المستوى والاهلية والكفاءة. ولقد اثبت العرب فعلاً اندفاعتهم السلمية من بعد طول تلكؤ، فلم يسمحوا لعملية لبنان ان تؤثر على الكرنفال المبتهج بمجيء باراك المخلص.

كل شيء في مصلحة مروّج الضربة مروراً هادئاً. وربما يتفهّم البعض منا حاجة الآخرين الى الاستماع الينا ونحن نعيد الدرس بانتظام حتى بعد انتهاء الدوام الرسمي للمدرسة. لكن رغبة المعلم السادية هذه لا تقوم بقمع حرية التلاميذ العرب امام ابواب الوعي وحدها، بل تنفذ تجربة وحشية على ارض لبنان يطلب من العرب «تسميع» نتائجها الفلسفية قبل الفيزيائية... ويطلب من اللبنانيين - خصوصاً - تكرار محفوظاتهم وتاكيدها والاقتناع بها. ويُطلب منهم تقديم الفقرة على طريقة مجلس ادارة جبل لبنان، المدلل من دون صلاحيات، او الاكتفاء بالصمت الرهيب.

* كاتب سوري.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية